

الباب الثاني الحركة الدينية

بدأت العلوم الدينية في الأندلس بانتقال بعض الصحابة والتابعين حينما هم موسى بن نصير بغزو الأندلس وفتحها، فكان معه بعض الصحابة والتابعين؛ نذكر منهم: المتيذر أو المتذر على اختلاف فيه، وهو صحابي، ومن دخلها من التابعين موسى بن نصير الفاتح، وعلي بن رباح، وحنش بن عبد الله الصنعائي، كانوا جنودًا في الجيش الفاتح، وهم مع ذلك حملة علم، وربما كان حنش هذا أعلم التابعين، وهو من أصل يمني؛ كان من أصحاب علي بن أبي طالب، وخرج مع عبد الله بن الزبير، على عبد الملك بن مروان، وكان أهل الأندلس يفخرون بوجوده بينهم. وأما علي بن رباح فبصري تابعي، وكان له مكانة عند عبد العزيز بن مروان في المشرق.

هؤلاء وأمثالهم بذروا البذرة الأولى في العلوم الدينية في الأندلس، وكانت أشبه ببذرة المشرق، فكانت عبارة عن قرآن كريم يتلى ويحفظ ويقرأ بالقراءات، وحديث يفسر عن النبي وعن الصحابة. والحديث يتضمن أحكامًا دينية، وأخبارًا عن سيرة الرسول وغزواته، وأعماله، وأخبار أصحابه وآرائهم وروايتهم... إلخ. والثقافة الأولى في المشرق والمغرب فيها دين وفيها أخلاق، وفيها تاريخ، وفيها غير ذلك، وكانت هذه الأقوال تنتشر انتشارًا كبيرًا، حتى لترجم إلى اللغة البربرية، ويتوقف بها البرابرة والمولدون، وكان هذا عملاً جليلاً قام به هؤلاء الصحابة والتابعون وكانوا يعدون الرعييل الأول. وأما الطبقة الثانية فمن أشهرهم رجال ثلاثة:

١- عبد الملك بن حبيب السلمي.

٢- يحيى بن يحيى الليثي.

٣- عيسى بن دينار.

فأما عبد الملك بن حبيب، فله فضل نشر مذهب مالك في الأندلس، إذ كان مالكيًا، وفي بعض الأقوال أنه لقي الإمام مالكا وأخذ عنه وكان فقيهاً عالمًا، ومعلمًا ممتازًا في إلقائه وسعة اطلاعه. وكان يقال في الأندلس: «فقيه الأندلس عيسى بن دينار، وعالمها عبد الملك بن حبيب، وراويها يحيى بن يحيى». وقد كانت الثقافة العامة بين المتعلمين الفقه والأدب، ثم التخصص، فترى أكثر علماء الأندلس فقهاء أدباء أولًا، ثم متخصصين، وهكذا كان عبد الملك هذا أديبًا مؤرخًا عالمًا باللغة والإعراب، له الأشعار الكثيرة، ثم متخصصًا في الفقه.

نعم؛ طَعَن بعضهم في بعض أحاديثه، وقالوا: إن له غرائب لم يعرفها المحدثون، ولكن الأكثرين على توثيقه. وأما يحيى بن يحيى الليثي، فقد أتم نشر مذهب الإمام مالك إذ كان رجلًا وقورًا مهيبًا ذا سلطة ونفوذ، فعمد إليه تحلفاء الأندلس أن يختار هو القضاة، وإذ كان مالكيًا كان لا يختار إلا المالكية، وإذ ملأ الناس حب الدنيا رغبوا في المذهب للمنصب. وأسس يحيى لقضاة الأندلس أسسًا متينة، فقد وضع نظام القضاة، وسمي قاضي القضاة، وقاضي الجماعة، ورتب مجلسًا للشورى، وسمي أعضاءه، فكان إذا ترجم لشخص منهم كان من شرفه أنه من رجال الشورى. ومن الأسف أننا لم نقف على النظام الدقيق لهذا المجلس إلا نتقًا هنا ونتقًا هناك، وكل ما نستطيع أن نقوله: إنه كان ينظر في الفتيا وفي المشاكل الفقهية، ويدي فيها رأيه. وكان عددهم في بعض الأزمان كما روى بعض المؤرخين ستة عشر، وأصل يحيى هذا من البربر، خرج إلى مالك في المدينة، وتفقه عليه، وروى الموطأ عنه، وروايته مشهورة في الشرق كله، وسمع من غير مالك، فسمع في مصر من الليث بن سعد، وفي مكة من سفيان بن عيينة، وعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن قاسم العتقي، وكان عفيفًا

أميئاً، فكان في الأندلس كأبي يوسف في المشرق، إلا أن يحيى تعفف عن القضاء، وعن المناصب الحكومية، فزادت قيمته.

ومما يدل على جلالته وجاهه أن الأمير عبد الرحمن الناصر، اتصل بجارية يجيها في رمضان ثم ندم على ما فعل ندماً كبيراً، فسأل يحيى عن الكفارة، فقال له: تصوم شهرين متتابعين. فلما خرج قيل له: لم لم تُفّت بمذهب مالك في التخير بين الصوم وعتق رقبة، فقال: «لو فتحنا له هذا الباب لسهل عليه أن يتصل كل يوم بجواريه، ثم يعتق رقبة، ولكن حملته على أصعب الأمرين لثلا يعود». وقد اهتم بإثارة الشغب في وقعة الرَبَض المشهورة، ضد الأمير الحكم، ثم عفا عنه، وقد كان في الأندلس ملكاً غير متزوج، ومات سنة ٢٣٤هـ.

وأما عيسى بن دينار فقد كان فقيهاً بارعاً، ومؤلفاً كثيراً، ألف كتاب الهداية. ويقول ابن حزم: «إنه أرفع كتب جمعت في معناه على مذهب مالك، وأجمعها للمعاني الفقهية على المذهب». وقال بعض المؤرخين: «إنه لم يكن أحد في وقته أعلم منه». وقد جمع بين الفقه والزهد، وتولى قضاء طليطلة، ورأس الشورى بقرطبة، وعدوه أفته من يحيى بن يحيى الليثي، وقد توفي سنة ٢١٢هـ على أشهر الأقوال.

وعلى الجملة: فقد كان هو وابن حبيب ويحيى أفراس رهان، كل له ميزته.

هؤلاء كانوا ناشري العلم الأولين في بلاد الأندلس، وجاء بعدهم طبقة أخرى. قدمت العلم خطوة جديدة؛ من أشهرهم: قاسم بن أصبغ من أهل قرطبة، فقد ساهم بالقيروان وبمصر وبالعراق، ثم عاد إلى الأندلس بعلم كثير، وكان بصيراً بالحديث والرجال، ألف كتاباً طويلاً ثم اختصره، وسماه «المجتبى»، وقدمه للحكم المستنصر؛ وفيه من الحديث المسند ألفان وأربعمئة وتسعون حديثاً في سبعة أجزاء. فهو كذلك

أكثر من الحديث وصنّفه على أبواب الفقه، وكان له الفضل في نشر العلم بالأندلس على هذه الطريقة، وله مصنف جليل القدر، احتوى على بيان صحيح الحديث وغريبه، كما ألّف في أحكام القرآن، وفي فضائل قريش، وفي الناسخ والمنسوخ، وقد ولد سنة ٢٤٧هـ.

ويُقِي بن مخلد، وقد ساعد أيضًا على تدعيم مذهب مالك، وكان واسع الاطلاع، وإنما قلنا: إنه نقل العلوم نقلة جديدة؛ لأنه جمع أحاديث كثيرة كما فعل الإمام أحمد، وصنّفها على حسب أبواب الفقه، ويُن الاستنباط منها، فكانت كتبه كتب حديث وفقه معًا. هذا إلى سعة في التحصيل، فقد روي أنه كان له مائتان وأربعة وثلاثون شيخًا. ولما أراد ابن حزم أن يفخر بمن في الأندلس من علماء، كان بقيّ هذا أحد الذين افتخر بهم وعدّه من مفاخرها. وقد ألّف بقي هذا تفسيرًا كبيرًا اطلع عليه ابن حزم وقال: «أقطع أنه لم يؤلف في الإسلام مثل تفسيره، لا تفسير محمد بن جزير الطبري ولا غيره». وله كتاب في الحديث كبير، رتب فيه حديث كل صحابي على أبواب الفقه، فهو مسند ومصنف. قال ابن حزم: «وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه، واحتفاله في الحديث». وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين. وعلى كل حال فقد كان دعامة من دعائم العلم في الأندلس.

وخطوة ثالثة: وهي التوسع في استنباط الأحكام من القرآن والأحاديث الصحيحة، وربما كان من خير من يمثل هذه الطبقة أبو عمر يوسف بن عبد البر، فقد ألّف كتابًا سماه «التمهيد»، وكان كتابًا واسعًا، ملأه بالكلام على فقه الحديث، وألّف كتابًا كبيرًا سماه «الكافي في الفقه» على مذهب مالك، قصره على ما بالفتى حاجة إليه؛ كما ألّف كتابًا في الصحابة جليلًا اسمه «الاستيعاب» يترجم فيه لكل صحابي، ويورد أخباره، فكان أول كتاب من نوعه قبل أن يؤلف ابن حجر

العسقلاني كتابه «التهديب».

فإذا خطونا خطوة أخرى، رأينا في المشرق أن الخلافات بين الفقهاء تصارعت وألّفت الكتب المختلفة فيها، وجمع بعض الفقهاء المذاهب المختلفة في كل مسألة، وألّف في اختلاف الرأي كتب كثيرة، كما فعل الطبري في كتابه «اختلاف الفقهاء»، فانتقل هذا إلى الأندلس، فرأينا مثلاً حفيد ابن رشد الفيلسوف يؤلف كتاباً في اختلاف المذاهب وعللها، ويسميه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»^(١). ومن محاسن هذا الكتاب أنه يذكر الخلاف في كل مسألة حدث فيها الخلاف بين الفقهاء، ويرجع ذلك إلى سببه، ويضع قاعدة عامة فيقول: «إن أسباب الاختلاف ستة؛ أحدها: تردد الألفاظ بين أن يكون اللفظ عامّاً يراد به الخاص، أو خاصّاً يراد به العام، أو عامّاً يراد به العام، أو خاصّاً يراد به الخاص، وثانيها: الاشتراك الذي في الألفاظ كلفظ القرء الذي ينطلق على الطهر وعلى الحيض، ولفظ الأمر، هل يحمل على اللزوم؛ أو على الندب، والسبب الثالث: اختلاف الإعراب، والرابع: تردد اللفظ بين حمله على الحقيقة، أو حمله على نوع من أنواع المجاز، والخامس: عد اللفظ مطلقاً تارة ومقيداً تارة أخرى، كإطلاق الرقبة على كل عبد، وقد يقيد بالعبد المؤمن، والسادس: التعارض بين القياسات أو الإقرارات، أو معارضة القياس للأفعال، أو نحو ذلك». وقد طبق هذا المبدأ على كل أنواع الخلاف في الفقه تطبيقاً بديعاً. فكان هذا خطوة جديدة.

ولنستق مثلاً في كيفية تطبيق هذا المبدأ، فهو مثلاً يعرض لمسألة قصر الصلاة في السفر، فيرى أن بعض الفقهاء حدد للسفر عدة أميال معينة، وبعضهم أطلق السفر على كل سفر، فيقول: إن بعضهم راعى السبب العقلي في القصر، وهو المشقة

(١) طبع في مصر سنة ١٣٢٩هـ.

الشديدة، وبعضهم وقف عند النص. فكان هذا سبب خلاف، وهكذا في كل موضوع.

ثم كان أن اخترع الشافعي أصول علم الفقه كالذي عليه أكثر المؤرخين، فانتقل هذا إلى الأندلس، فألف فيه ابن حزم أصول الأحكام، وتبعه الشاطبي في كتابه «الموافقات»، فنرى أن الشاطبي أخذ فكرة الأصول عن الشافعي وأمثاله، ولكنه بحث موضوعات لم يبحثها المشاركة، وعرضها في أسلوب أطف من الأسلوب الذي اتبعه المشاركة في كتابة الأصول، واستشهد أيضًا ببعض أحداث حدثت في الأندلس، وهكذا.

وأما علوم القراءات فقد نمت أيضًا في الأندلس، فالشاطبي^(١) الذي ألف رسالته المسماة «حز الأمان» والتي تسمى بالشاطبية نسبة إليه قد اشتهرت في الشرق والغرب جميعًا، وأخذت عمادًا للقراءات في مختلف العصور والأقطار؛ كما عنوا بتفسير القرآن، واشتهر عندهم تفسير القرطبي^(٢)، وقد اتبع في تفسيره ذكر الآية، ثم يذكر ما فيها من اللغة ووجه الإعراب، والمعنى العام، وما يستنبط منها من أحكام... إلخ، وقد جمع فيه بين المنهجين: منهج الرواية كالطبري، ومنهج الدراية كالزخشري، وشاع الانتفاع به في العالم الإسلامي.

وكان عالم الأندلس الديني غير مدافع ابن حزم: فقد كان واسع الاطلاع، قوي النفس في الجدل، متعدد نواحي النبوغ، لينًا، يهاجم من خالفه، حتى يدخله في قمقم. يظن من يقرأ له علمًا أنه لا يحسن غير هذا العلم لمهارته فيه، فإذا هو كذلك يحسن كل علم تقريبًا، فهو نابغة في الحديث، وفي علم الكلام، وفي التاريخ، وفي

(١) وهو غير الشاطبي الذي ألف في الأصول.

(٢) وهو الذي تطبعه دار الكتب الآن.

أصول الفقه، وفي الأدب. وقد ألف في ذلك تأليفات كلها قيمة، حتى في المنطق والفلسفة، ولعله تعلم الجدل أول أمره، إذ نشأ شافعيًا يناضل أهل المذاهب الأخرى، وقد اشتهر الشافعية بذلك، ثم انتقل إلى مذهب الظاهرية بتأثير أستاذه الظاهري أبي الخيار؛ ولعل ما يوضح ما هو مذهب الظاهرية، ما كتبه هو نفسه، في كتابه أصول الفقه، المسمى «الإحكام في أصول الأحكام»، وقد سلك فيه مسلكًا يدل على الابتكار، وتكلم في مسائل لم يتكلم فيها أهل المشرق من الظاهرية، ومن خير ما فيه فصل في الدفاع عن الحجج العقلية، ووجوب الأخذ بها، وفصل آخر في معنى الصحابي، وأنه ليس كل من رأى النبي صلى الله عليه وسلم، وفصل في كيفية ظهور اللغات، وفصل في معنى الظاهرية. وملخصه أن الظاهري لا يعتمد في استنباط الأحكام الشرعية على القياس، بل على النص، وإذا كان النص مطلقًا أخذ على إطلاقه، إلا إذا قيده نص آخر. واعتاد الظاهرية على النصوص فقط أسلمهم أحيانًا إلى بعض المتناقضات، مثل: أنهم يوجبون غسل الإناء من ولوغ الكلب لوجود النص، ولا يغسلونه من ولوغ الخنزير لعدم نص في ذلك، وبيننا يبيحون الرخص في بعض المسائل، يشددون في بعضها الآخر، فهم مثلاً يميزون للجُنب قراءة القرآن والجلوس بالمسجد، وهم لم يشترطوا في البيع صيغة خاصة كبعض المذاهب، وهذا يُسر ظاهر، ولكنهم أوجبوا غسل اليد ثلاثًا بعد النوم، وحكموا بنجاسة الماء الذي مسته يد مستيقظ لم يغسل يده... إلخ^(١).

وقد دافع عن هذا المذهب إلى أن مات، وقد تأثر ابن حزم إلى درجة كبيرة أيضًا بأستاذه أبي علي الفاسي، وكان كما قال ابن حزم عاقلًا عالمًا عاملاً، متقدمًا في الصلاح والنسك. قال: «وما رأيت مثله علمًا وعملاً ودينًا وورعًا، فنفعني الله به كثيرًا، وقد

(١) ابن حزم للأستاذ سعيد الأفغاني.

علمت منه موقع الإساءة وقبح المعاصي».

وقد تعلم ابن حزم الحديث وتبحر فيه، وقد اتبعه كثيرون على مذهبه الظاهري، وخرجوا من مذهب مالك إليه، كما أن كثيرين ضاقوا به ذرعاً، وأنكروا عليه صراحته، وأعلنوا الحرب على كتبه، حتى بلغ بهم الغيظ أن أحرقوها علناً في إشبيلية.

وقد وصف هو حالته واضطهاده من الخلفاء العامريين الذين أتوا بعد الأمويين، ليله السياسي إلى الأمويين، قال: «ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام بالنكبات، وباعتداء أرباب دولته، وامتحننا بالاعتقال والتغريب، والإغرام الفادح، وأرذمت^(١) الفتنة، وعمت الناس وخصتنا، إلى أن توفي أبي الوزير، رحمه الله».

وقال في موضع آخر: «ثم ضرب الدهر ضرباته، وأجلينا عن منازلنا وتغلب علينا جند البربر، وخرجت عن قرطبة سنة ٤٠٤ هـ، وتقلبت في الأمور... إلخ». وظل يتلقى العذاب من خصومه السياسيين، وخصومه العلماء، والحق يقال: إن المذهب الظاهري تغلغل في نفس ابن حزم، فلو قرأت مذهبه وكتبه وجدت أمثلة من نظرة الظاهري، ووقفه عند حرفية النصوص.

ويظهر أنه كان ضيق الصدر حسب مزاجه، حاد اللسان، يصك به معارضه، مما أثار عليه خصومه، ولم يخلفه في الدفاع عن الظاهرية إلا ابن تيمية فيما بعد، وقد اختلف الناس في أصله، أكثر مؤرخي العرب يقولون: إن جده الأعلى كان نصرانياً وأسلم، وأن جده هذا كان مولى فارسياً ليزيد بن أبي سفيان. وذهب ابن سعيد وتبعه بعض المستشرقين إلى أن جده الأعلى هذا كان من القوط الذين غزوا إسبانيا، وأقاموا فيها. وأياً ما كان فقد كان أبوه وزيراً للحاجب المنصور بن أبي عامر. فعاش عيشة

(١) اشتدت.

أرستقراطية، وعنى بابنه علي بن حزم، وعلمه على يد كثير من المشايخ، ولكن نكبه ابن أبي عامر، ونكب معه أهل بيته فشرّدوا، ونفوا، وتحملوا العذاب بعد العز والترف، وتوفي والده سنة ٤٠٢ هـ، وفارق ابن حزم قرطبة، وذهب إلى المريّة، وعاش هناك في هدوء، مشغلاً بالعلم والتأليف، ثم عادت دولتهم واختير ابن حزم نفسه وزيراً، ولكنه لم تطل وزارته، إذ نكبه سيده. وعكف أكثر وقته على التأليف حتى ذكر ابنه أنه ألف أربعمئة كتاب، قال صاعد: «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة، مع توسعه في علم اللسان والبلاغة، والشعر، والسيرة، والأخبار».

وقال الذهبي: «وكان إليه المنتهى في الذكاء وحدة الذهن، وسعة العمل بالكتاب والسنة، والمذاهب والملل والنحل، والعربية والآداب، والمتنطق والشعر مع الصدق والديانة، والحشمة، والسؤدد والرياسة والثروة».

وقد قارب ابن حزم في عصره عبد الواحد الماكشي، فقال عنه: «إنه بعد أن استوزر نبذ الوزارة، وإطرحها اختياراً، وأقبل على قراءة العلوم، وتقويد الآثار والسنن، فنال من ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس، ومبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والمثل، وكتب الأدب، والرد على المخالفين له، نحو من أربعمئة مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة. وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في مدة الإسلام قبله، إلا ابن جرير الطبري، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفاً... ومن أجود ما أحفظ له بيتان قالهما في رجل تّام:

أنم من المرآة في كل مادري وأقطع بين الناس من قُضب الهند
كان المنايا والزمان تعلما تحيُّله في القطع بين ذوي السؤد

وهو أشهر علماء الأندلس اليوم، وأكثرهم ذكرًا في مجالس الرؤساء، وعلى السنة العلماء، وذلك لمخالفته مذهب مالك بالغرب، واستبداده بعلم الظاهر، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمنا، وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم، أقول: وقد بقيت شهرته كبيرة بعد وفاته وقد ماتت العداوات بموته، وظل موضع إجلال وتقدير من العلماء بعده»^(١).

واطلع الغزالي على كتاب له في أسماء الله الحسنى، فقال: «إنه يدل على عظم حفظه، وسيلان ذهنه»، وكل ما أخذوه عليه أنه طعن في كثير من العظماء بلسان حاد لاذع، ومنحه الله طولًا في العمر فعاش اثنتين وسبعين سنة، إذ توفي سنة ٤٥٦ هـ. ومن أهم تأليفه كتاب «الفصل في الملل والنحل»^(٢)، فحكى المذاهب المختلفة في أهم العقائد وأهلها، وناقش كل فرقة من المخالفين له كالمعتزلة، والأشعرية، والشيعة، وغيرهم. ومكنه من ذلك أنه لم يقلد طائفة معينة، بل قال ما يوحيه إليه اجتهاده هو، ومن خالفه في شيء هاجمه في شدة وقسوة. ومع أن الأشعري كاد يكون مقدسًا في المشرق والمغرب، فابن حزم لم يعأ به، وهاجمه مهاجمة عنيفة، كما هاجم الصوفية، ومن يعتقد في التنجيم، وفي الأولياء.

ولم يكتفِ ابن حزم بمهاجمة أصحاب الفرق الإسلامية، بل هاجم اليهودية والنصرانية، واستغل العقيدة الإسلامية بأن التوراة والإنجيل حُرِّفا عن أصلهما استغلالًا عظيمًا، وحاول بكل إمكانه أن يجد تناقضًا في كتبهم، ليبرر اتهامهم في تحريف النصوص.

(١) المعجب ص ١٤٦ وما بعدها. ونشير هنا إلى أننا نرى بعض نصوصه غامضة أو بطولية مما

بحملنا على أن نذكرها بشيء من التصرف.

(٢) نشر في ليدن ثم في مصر.

ويظهر أنه أُلّف في ذلك رسالة خاصة، ثم أدمجت في الكتاب؛ كما تضمن الكتاب رسائل أخرى، وهذا ما سبب أن هذا الكتاب لم يخضع للمنهج المنطقي الدقيق، والقارئ له يدهش من طول نفسه، وقوة حجته، وسعة اطلاعه، وبلاغته التي قد تفوق بلاغة الغزالي في إحياء العلوم. ومن مبتكرات ابن حزم في هذا الكتاب أنه أراد أن يستنبط من المذهب الظاهري الذي ذكرناه عقائد خاصة، مطبقة على هذا المذهب، والإنسان يعجب: كيف استطاع ابن حزم - هذا الذي عاش عيشة مترفة في القصور وبين الجواري - أن يؤلف مثل هذه الكتب، وربما ساعده على ذلك أنه كان ذا عقل لا قطن يرى كل شيء، ويفهم سره، حتى دلال الجواري ومغازلتهم. وهاجم في كتابه القياس، والرأي، والاستحسان، والتقليد، والتعليل، وله رسالة بهذا الاسم لا تزال مخطوطة. وقد قال المنصور من الموحدين عند وقوفه على قبره: «كل العلماء عيال على ابن حزم». وقد صدق؛ فقلما نجد له نظيرًا، فقد شغل الناس في المشرق والمغرب بين مؤيد ومعارض.

وعلى الجملة، فقد قال فيه ابن حيان بحق: «إنه يصك معارضه صك الجنادل»، فكان لا يأبه بمن يعارضه، عظيمًا أو غير عظيم، مبجلًا أو غير مبجل، كالأشعري، وأبي حنيفة، ومالك وغيرهم. ومن الأقوال الشائعة أن قلم ابن حزم كسيف الحجاج، كلاهما ماضٍ حاد. وقد اعتذر في بعض كتبه عن حديثه بأنها كانت ترجع إلى مرض كان يلازمه، ولذلك كان محسدًا من فقهاء عصره من سنيين، وشيعة، ومعتزلة، يدسون له الدسائس عند الملوك، حتى يُبعد من القصور، وربما كان هذا نعمة؛ لأنه أتاح له أن يتحفا بتأليفه العظيمة القيمة.

وقد قال الذهبي فيه: «وقد امتحن هذا الرجل وشدد عليه، وشرد عن وطنه، وجرت عليه أمور لطول لسانه، واستخفافه بالكبار، ووقوعه في أئمة الاجتهاد بأقبح

عبارة، وأفظح محاوره، وأمنع رده، وظل صلبًا في مذهبه صلابة تستدعي الإعجاب. قال ابن حيان: «وأكثر معانيه عند المنصف له جهله بسياسة العلم» ويعني بسياسة العلم: الملاينة والرد في هدوء ووقار.

والحق عندنا أن ابن حزم كان موضع إعجاب في حرية رأيه ووقوفه عند النصوص، مهما خالفه الكبار، فليس يمه رأي مالك أو أبي حنيفة في المسائل الفقهية، ولا الأشعري ونحوه في العقيدة، أما ما يعاب عليه حقًا، فهو طعنه في العلماء والكبار، بكل صراحة مع التجريح الشديد. وقد وصل إلينا أخيرًا من تأليفاته رسالة في «المفاضلة بين الصحابة»^(١)، وهي المسألة التي ثار فيها الخلاف الشديد بين الشيعة وأهل السنة.

والمطلع عليها يعجب لمنطقه الدقيق فيها، فهو يذكر أولاً معنى الفضل، وبم يتفاضل الصحابة كقاعدة للبحث مع الحجج المنعنة، العقلية والنقلية، ثم يفاضل على هذا الأساس بين الصحابة بالدليل. وهو يدل على سعة اطلاع وكبر عقل.

على كل حال حرك عقول الأندلسيين بتأليفه ودعوته إلى المذهب الظاهري، وقد كان الأندلسيون مقلدين مذهب مالك من غير بحث، فكانت ترى في أكثر مجالس العلماء من يؤيده، ومن يهاجمه، حتى اشترك في ذلك الأمراء أنفسهم، وربما كان أقواهم في الرد عليه والوقوف أمامه الفقيه الأندلسي المشهور «أبو الوليد الباجي» وكان فقيهاً متكلمًا، ولي القضاء مدة، وأكثر من التصانيف، ورحل إلى الشرق، ولقي كثيرًا من علمائه، وأخذ عنهم، وكان فقيرًا يعمل بيده ليعيش، وظل في الشرق نحو ثلاثة عشر عامًا يتبحر في العلوم، فلما قدم الأندلس، وجد أن ابن حزم لطلاوة

(١) طبعت في دمشق.

حديثه، وقوة حجته، وقد أمال إليه كثيرًا من الناس، وشكك بعضهم، ورأى أن أهل الأندلس ليس منهم من هو في قوة جدله، فكلمه الأندلسيون في ذلك، وكانت له معهم مجالس مشهورة، في بعضها ينتصر ابن حزم، وفي بعضها ينتصر الباجي، فإذا انتصر الباجي هلك الناس وكبروا.

وربما كان أكثر ما يدل على قيمة هذه المناظرة وقوة كلٍّ، وتفوق ابن حزم على الباجي حكاية صغيرة لطيفة، إذ قال الباجي لابن حزم: «أنا أعظم منك همة في طلب العلم، لأنك طلبته وأنت معانٍ عليه: تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته أنا وأنا أسهر بقنديل بائت السُّوق، فقال ابن حزم: هذا كلام عليك لا لك، لأنك إنما طلبت العلم، وأنت في تلك الحال، رجاء تبديلها بمثل حالي، وإنما طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته، فلم أرح به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة» فأفحمه.

وقد قال عياض العالم المشهور: «قال لي أصحاب الباجي: كان يخرج إلينا للإقراء وفي يده أثر المطرقة يحصل رزقه، إلى أن فشا علمه ونوّهت الدنيا به، وعظم جاهه، وأجزلت صلواته، حتى مات عن مال وافر». ومن مثل ما كانت تدور عليه المناظرة بين الباجي وابن حزم حديث روي، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم وقّع على صلح الحديبية، فظاهر الحديث يدل على أن محمدًا عليه الصلاة والسلام كتب اسمه، والقرآن يقول: إنه نبي أمي، فكيف التوفيق بين ذلك؟ أما ابن حزم فقال: إنه وقع كالظاهر، ولكن توقيعه لا ينفى أميته ككثير من الملوك يوقعون بإمضاءاتهم وهم أميون، أما الباجي وغيره، فيؤوّلون التوقيع.

ولنستق لك صورة مما كان يجري بين الظاهرية وخصومهم، فأصحاب المذاهب يقولون للظاهرية: إنكم جامدون عند اللفظ، لا تنظرون للمعاني المقصودة من روح التشريع، وكان الله ينعي على الكفار اقتصارهم على فهم ظواهر الدنيا فقال:

«يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا» فكيف بمن اقتصر على ظاهر الشريعة؟ فيقول الظاهرية: إن القصد من الشريعة هو التعبد، وظهور سر الامثال، أما التعمق في القياس والعلل فيخرجها من حد التشريع الإلهي إلى التشريع الوضعي البشري.

نعم إن هناك عللاً للأحكام إذا نص عليها عملنا بها، أما إذا لم ينص عليها لم نستطع العمل بها. فمن أين يستفاد أن العلة في تحريم الربا هي الاقتيات والادخار، أو الكيل والوزن كما يقول أهل القياس، ومن أين يستفاد من قوله -عليه السلام-: «الولد للفراش» أنه لو قال له الولي بحضرة الحاكم: زوجتك ابنتي وهو بأقصى الشرق، وهي بأقصى الغرب، فقال: قبلت هذا التزويج، وهي طالق ثلاثاً، ثم جاءت بولد لأكثر من ستة أشهر: إنه ابنه؛ لأنها صارت فراشه. فنحن ننكر هذا التمثيل وهذا التشبيه، والله تعالى يقول: «وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله» ولم يقل إلى آرائكم وأقيستكم. ويرد عليهم القياسيون بأن قوله: «فحكمه إلى الله» لا يمنع القياس، لأن ما قيس على كلام الله فهو حكم الله أيضًا. فالنظر إلى المقاصد وهي اللب واجب، وهكذا. واستمر الباجي يناظر ابن حزم عهدًا طويلًا، والحرب بينهما سجال.

وكان ابن حزم كثير الاعتداد بنفسه، وقد نعى نفسه قبل وفاته فقال:

كأنك بالزَّوَارِي قد تبادروا	وقيل لهم: أودى علي بن أحمد
فيا رب محزون هناك وضاحك	وكم أدمع تدرى وخذ مقدد
عفا الله عني يوم أرجل ظاعنًا	عن الأهل عمومًا إلى ضيق ملحدني
وأترك ما قد كنت مرتبطًا به	وألقى الذي أنسيت دهرًا بمرصد
فوَازَاحْتِي إن كان زادي مقدمًا	ويانصبي إن كنت لم أتزود

ومما يدل على اعتداده بنفسه قوله:
 قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت
 فقلت: هل عيبتهم لي غير أنني لا
 وأنسي مولع بالنص لست إلى
 لا أنتهي نحو آراء يقال بها
 يا برد ذا القول في قلبي وفي كبدي
 دعهم يعضوا على صم الحصى كمدا
 إني لأعجب من شأني وشأنهم
 ما إن قصبت لأمر قط أطلبه
 أما لهم شغل عني فيشغلهم
 كأن ذكري تسيح به أمروا
 إن غبت عن لحظهم ماجوا بغيتهم
 دعوا الفضول وهبوا لليان لكي
 وحسبي الله في بدء وفي عقب

أقوالهم وأقارب العداء من
 أقول بالرأي إذ في رأيهم فتن
 سواء أتخو، ولا في نصره أمن
 في الدين بل حسبي القرآن والسنن
 وبأمروري به لو أنهم قطنوا
 من مات من قوله عندي له كفن
 واحسرتا إنني بالناس عمتن
 إلا وطارت به الأظعان والسفن
 أو كلهم بي مشغول ومرتبين
 فليس يغفل عني منهم كسين
 حتى إذا رأوني طالعوا سكتوا
 يدري مقيم على الحسنى ومفتن
 بذكره تدفع الغناء والإحن

وهي قصيدة تدل على مذهبه بالأخذ بالنص مع تصوير لطيف لحال أعدائه معه.

واستمرت هذه الحركة طويلاً، منهم من يكفره، ويُحذّر منه العوام والولاة،
 ومنهم من يدس له الدسائس ويتهمه بالسياسة التي تغضب الأمير، ومنهم من يقوله
 ما لم يقل. وفي ذلك يقول مخاطباً لبعض أصحابه:
 وخذني عصا موسى وهات جميعهم ولو أنهم حيات ضال نضائد

يرغبون في عيني عجائب جمّة وقد يتمنى الليث والليث رابض
ويرجون ما لا يبلغون كمثل ما يرجي محالاً في الإمام الروافض

حتى بعض أهله حسدوه على فضله، وناصروه العدا، وذو الفضل دائماً محسود، وقد كان رحمه الله كما قال ابن حيان: «إذا حرك بالسؤال يتفجر معه بحر علم لا تكدره الدلاء». وقد روض نفسه على ذلك، فكان يكثر من قوله تعالى: «وأعرض عن الجاهلين». وقوله عليه الصلاة والسلام: «صل من قطعك، واعف عن ظلمك»، وقول بعض الحكماء: «كفالك انتصاراً لمن تعرض لأذاك، إعراضك عنه»، ويقول هو:

فإني أبيت طلاب السباب ونزهت عرضي عما يعاب
فقل ما بدالك من بعد ذا وأكثر فإن سكوتي خطاب

وقد نبغ في تخريج المذهب الظاهري نبوغاً جعله إماماً يقتدى به، حتى عد صاحب مذهب ظاهري، وعرف أتباعه بالخزمية، وكان له أتباع على هذا المذهب مثل: ابن عبد البر المحدث، والحميدي المؤرخ، وقد مال إلى مذهبه ابن تومرت زعيم الموحدون. وقد انتصر مذهبه في المشرق أيضاً، فاعتنق مذهبه ابن سيد الناس الإمام المصري، وقد أخذ بلون منه محيي الدين بن عربي الصوفي الكبير، وابن رشد الفيلسوف الكبير.

وظلت الحركة بعده بين مؤيد ومهاجم، حتى ظهر بعد قرن تقريباً العالم المشهور أبو بكر بن العربي، وانتشر ذكره في المشرق كما انتشر في الأندلس، وكان قد رحل إلى الشرق، وتلمذ للإمام الغزالي في دمشق، فجاء إلى الأندلس موطناً نفسه على مهاجمة تعاليم ابن حزم. وكان لسيّناً قوي الحجّة، كشيخه الغزالي، فخلف أثراً كبيراً في

الأندلس وغيرها.

وكان ابن الباجي يعمل على تفنيد مذهب الظاهرية، وكان يوفق أحياناً، ولا يوفق أحياناً، وكان واسع العلم، وقالوا: إن كل من رحل لم يأت بمثل ما أتى به ابن العربي إلا الباجي. وكان متفتناً في المعارف كلها، مع خلق متين، وقضاء صائب، والتزم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حتى أُوذي في ذلك. قال فيه القاضي عياض: «إنه أقبل على نشر العلم وبثه، وكان فصيحاً حافظاً، كثير الملح، مليح المجلس».

ولنذكر بعض كلامه في الرد على ابن حزم قال: «وكان أول بدعة لقيت في رحلتي القول بالباطن، قلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان من بادية إشبيلية، يعرف بأبن حزم نشأ وتعلق بمذهب الشافعي، ثم انتسب إلى داود، ثم خلع الكل، واستقل بنفسه، وزعم أنه إمام الأمة، يضع ويرفع، ويحكم ويشرع، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه، ويقول عن العلماء ما لم يقولوا، تنفيراً للقلوب، وعضدته الرياسة... فحين عودتي من الرحلة ألفت حضرتي منهم طافحة، و نار ضلالتهم لافحة» فنازلهم. ورمي ابن حزم بالسخف قول فيه إجحاف، وقد أنصفه ابن حيان، والذهبي، وشكا ابن حزم نفسه من علماء وقته، فقال: «إن المثل السائر: أزهّد الناس في عالم أهله»، وقرأت في الإنجيل أن عيسى - عليه السلام - قال: «لا يفقد النبي حرمة إلا في بلده»، وكان يعتقد أن من سوء حظه أنه أندلسي، ولو كان مشرقياً لعرفوا فضله، وشادوا بذكره، وكان له شأن آخر غير شأنه.

وقال ينعي أهل الأندلس: «إن الأندلس خضت بحسد أهلها للعالم الظاهر فيها، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي به، واستهجانهم حسناته، وتبعهم سقطاته، إن

أجاد، قالوا: سارق مغير، ومنتحل مدع، وإن توسط قالوا: غث بارد، وضعيف ساقط، وإن باكر الحيازة لقصب السبق، قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلم؟ وفي أي زمن قرأ؟ ولأمه الهبل، فإن تعرض لتأليف غمز ولُز، واستشنع هين سقطه، وعظم يسير خطئه، وذهبت محاسنه، وسترت فضائله، فتنكسر لذلك همته، وتقل نفسه، وتبرد حميته».

وهكذا عودي كثيرًا، وخصوص كثيرًا، وتألم كثيرًا، وإن كان ذلك كله قد أورثه تجارب دُونها في كتابه «الأخلاق».

وقد قرأت لابن العربي كتاب «العواصم من القواصم»^(١) فإذا هو كتاب يدخل على شخصية كبيرة لصاحبه، يروي لنا فيه مثلًا أنه لقي الغزالي في دمشق، ويدون محضرًا لجلساته معه، وأحيانًا يوافق على ما يقوله، وأحيانًا يخالفه، ويذهب مثلًا فيه إلى أن الحسين بن علي رضي الله عنه نخرج على إمام الجماعة يزيد بن معاوية، نائر عليه، وأنه إنما قُتل بشرع جده، ويروي لنا كيف كان الفرس يدخلون في الإسلام شعائرهم الدينية القديمة، فيذيعون التجمير في المساجد للتبخير، وهي عادة فارسية قديمة أدخلوها على الإسلام من أثر عبادتهم للنار، وحكى له ابن خلدون طرقًا لطيفة في مقدمته.

على كل حال كان حربًا على الظاهرية، وخصوصًا ابن حزم، ومع ذلك لم يستطع نحو هذا المذهب، فظل بعده أيضًا، وعُد ابن العربي بحق خاتمة المحققين، وكل من أتى بعده مقلد صغير، وانحط شأن العلوم الدينية، وضعف أمرها.

شأن الأندلسيين في ذلك شأن المشاركة، فالعالم الإسلامي كله وحدة، وهو

(١) طبع في الجزائر.

يخضع لقوانين واحدة، فما حدث في قطر من أقطاره يحدث مثله في الأقطار الأخرى غالبًا، فلما ضعف الفقه في المشرق ضعف في المغرب إلا أفرادًا قلائل، وقد ضعف الفقه في المشرق لعدم الاجتهاد ولغلبة الأتراك، وغير ذلك من الأسباب التي ذكرناها في الجزء الثاني من ظهر الإسلام، وكتابنا يوم الإسلام، إذ أغلقوا باب الاجتهاد، أما في الأندلس فقد داهمهم الإسبان، كما داهم الترك الشرق، فكانت العلة واحدة، إلا أفرادًا شواذ كانوا هنا وهناك، أعادوا مجد الفقه الإسلامي في الأندلس، فلما أتى الموحدون بالأندلس أعادوا القول بالاجتهاد، ورأوا أن المختصرات الفقهية جنت على الفقه، فأرادوا إحياءه بالرجوع إلى الكتاب والسنة، واستنباط الأحكام منها، وعدم العمل بأي مذهب من المذاهب المعروفة، وذلك في حدود سنة ٥٥٠هـ، وأمر عبد المؤمن بن علي الموحدية بإحراق كتب الفروع كلها؛ فخافه الفقهاء، وأمر جماعة ممن كانوا عنده من العلماء بجمع الأحاديث من المصنفات العشرة المشهورة، ونشر هذا المجموع في الأندلس والمغرب.

قال بعضهم: «لما دخلت على أمير المؤمنين يعقوب وجدت بين يديه كتاب ابن يونس، فقال لي: يا أبا بكر، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، فالمسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أو أكثر، فأبي هذه الأقوال هي الحق؟ وأيها يجب أن يأخذها المقلد يا أبا بكر؟! ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا وأشار إلى سنن أبي داود، أو هذا وأشار إلى السيف». وأمر الفقهاء ألا يفتوا إلا من الكتاب أو السنة، وألا يقلدوا أحدًا، بل تكون أحكامهم بالاجتهاد، وسار الناس على هذه الطريقة، والتزموا ظاهر الكتاب والسنة، وتحروا في الاجتهاد، وكان من هؤلاء فقهاء على هذه الطريق مثل: أبي الخطاب، ومحيي الدين بن عربي، وغيرهما، وبذلك نصر الموحدون مذهب الظاهرية ومنهم ابن حزم. ومن الأسف أن بني مَرين لما جاءت دولتهم نقضت ذلك كله، وجددت كل الفروع، وأحييت كتب الفقه على

مذهب مالك من جديد.

وتاريخ الأندلس في ذلك التاريخ كتاريخ المشرق، إذ المدينة كلها واحدة.

وقد رُويت حوادث كثيرة لفقهاء أندلسيين تدل على صدقهم وإخلاصهم وظرفهم، وقد رويانا من قبل حكاية يحيى بن يحيى الليثي الذي وقف أمام عبد الرحمن الداخل، وألزمه بالصيام شهرين متتابعين، ومثل ممانعة القاضي الذي تقدم ذكره في استيلاء عبد الرحمن الناصر على بيت أيتام حتى يدفع لهم أكثر من ثمنه، ومثل إضراب أبي عمر بن المكّي الإشبيلي شهرين عن الفتوى لقتل ابن أبي عامر عبد الملك بن منذر البلّوطي ظلماً، ومثل ما يروى أن قاضي قرطبة محمد بن عبد الله بن يحيى كان مازراً بمدينة البيرة أيام قضائه فيها فرأى فتى يتمايل سكرًا، فلما رأى القاضي أراد الفرار فخانته رجلاه، فاستند إلى الحائط، فلما دنا منه القاضي رفع الشاب رأسه وأنشأ يقول:

أأضحى به في العالمين فريدا	ألا أيها القاضي الذي عم عدله
فلم أرفيه للشروب حدودا	قرأت كتاب الله ألفين مرة
صبورًا على ريب الزمان جليدا	فإن شئت أن تجلد فدونك منكبا
تروح بها في العالمين حميدا	وإن شئت أن تعفو تكن لك منة
لسانًا على هجو الرجال حديدا	وإن أنت اخترت الحدود فلإن لي

فلما سمع القاضي شعره، أعرض عنه ومضى لشأنه.

ومثل أن أبا إبراهيم التميمي القرطبي تخلف عن الحضور في وليمة دعاه إليها عبد الرحمن الناصر، وكان صديقًا لابنه الحاكم، فما سُئِل في ذلك رد فقال: إن من قبلك من الأمراء والخلفاء كانوا يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتنونها بها يشينها

ويرد منها، يستعدون بها لدينهم، ويتزينون بها عند رعاياهم؛ ولهذا تخلفت. وأراد الناصر أن يدعوه هو وابنه الحكم فاعتذر أيضًا، وخاف أن الناس يقولون: إنه يستجلب الدراهم بدعوة الخليفة وابنه. وفي ترجمته ما يعطينا شيئًا عن نظام الشورى عندهم، فقد قالوا: إن مجلس الشورى كمل عدده به ستة عشر.

ومثل أن أحد القضاة لمح ما عليه ملوك الطوائف من تخاذل وافتراق رأي، فندب نفسه لجمع كلمتهم، والتوفيق بينهم، وجعلهم جبهة واحدة ضد العدو.

وأخيرًا لم يفلح في ذلك، فاستقله الأمراء، وأيقن بالفشل، وكف عن سعيه... إلخ إلخ، فهذا يعطينا بعض الفكرة عن مجلس الشورى وقوة رجاله وعددهم وأحيانًا ظرفهم.

ولما كثرت المذاهب من ظاهرية ومالكية ومن شيعة إلخ، كثر حبههم للجدل بعد أن كانوا منصرفين عنه، حتى حكى بعضهم أنهم كانوا كثيرًا ما يتجادلون في مجلس العزاء، وسبب آخر لهذا الجدل وهو كثرتة في المشرق، حتى ألفت المشاركة علمًا سموه علم المناظرة أو أدب البحث، وألفوا علمًا سموه علم «الخلاقيات»، وقد نقل ذلك إلى الأندلس فازداد نشاطهم في البحث والمناظرة.

وقد رأينا أن تاريخ العلم كتاريخ الأفراد، له صبا وشباب وشيخوخة وهرم، فلما انتهى هؤلاء الأعلام كابن حزم، والباجي، وابن العربي، وصل العلم إلى دور الهرم، فأصبح كالرجل الهرم، لا يقوى على المسير، حتى انتهى الفقه.

وهناك ناحية أخرى جديدة بالبحث في الحركة الدينية وهي ناحية التصوف، وكما نشأ التصوف في المشرق في القرن الثاني كذلك نشأ التصوف في الأندلس في القرن الثاني بعد الفتح العربي؛ غير أن تصوف الشرق كان مزيجًا من تعاليم الإسلام

وتعاليم الفرس والهند واليونان، وتصوف الأندلس كان مزيجًا من تعاليم الإسلام وتعاليم الأفلاطونية الحديثة، والتعاليم اليونانية والرومانية، لا الفارسية ولا الهندية إلا ما جاء من قِبَل المشرق؛ إذ كانت هذه التعاليم كلها هي التي تجاور الأندلس. يضاف إلى ذلك أن الأندلسيين كان كثير منهم برابرة، وكثير منهم أولاد مسيحيين متصوفين، وقد اشتهر البربر من قديم بأنهم أهل خيال واعتقاد بالمغيبات، وسرعة تصديق لمن يأتي لهم بدعوى غيبية، ولسنا ننسى ما لقيه العرب عند فتح المغرب من عناء وشدة قتال، وانتفاض على يد من تُدعى «الكاهنة» إذا التفوا حولها فأمنوا بها، وأذاقوا العرب في الفتح الأمرين، وهذا يدل على الطبيعة البربرية. وإلى الآن في كثير من البلاد يأخذ البرابرة سمعة قوية في فتح الكتاب، وفتح الكنوز، وقراءة الكف، والادعاء بمعرفة المغيبات، وهي أشياء من قبيل التصوف بعد أن يتدلى، ولذلك كله كبرت عند الأندلسيين حركة التصوف.

ونسلسلها كما سلسلنا الفقه. فأول من علمنا تصوفه ابن مسرّة، وهو محمد بن عبد الله بن مسرة، ولد سنة ٢٩٦هـ، وكان أبوه من قرطبة، وعرف أبوه بالاعتزال، وكان الاعتزال في الأندلس قليلًا وغير مرغوب فيه، فاضطر أن يخفي ذلك على الناس، ومعروف أن الاعتزال يثير بحث كثير من الإلهيات، ويتسلح أصحابه بالفلسفة اليونانية للدفاع عن الإسلام ضد النصرانية واليهودية كما رأينا في المشرق، فأورث ذلك كله لابنه، ورأى أباه يُسِرُّ الاعتزال وما إليه، فأسرَّ هو أيضًا مذهبه، ولهذا اعتزل ابن مسرّة الناس أيضًا قبل أن يبلغ الثلاثين، والتجأ إلى جبل في قرطبة، يتحنت فيه، وجبال الأندلس عادة خضراء، تبهج النفس، وانضم إليه بعض أتباعه، وساعدته عزلته والمناظر الطبيعية التي أمام بصره على سعة الخيال، وعمق التفكير، وظل أتباعه في الأندلس قرونًا طويلة، ومع ذلك لم يستطع هو وأتباعه الكثيرون أن يحافظوا على السرية محافظة تامة، واتهم بالإلحاد، ففر من البلاد مدعيًا أنه يريد الحج،

وظل خارج الأندلس، حتى تولى عبد الرحمن الثالث الذي اشتهر بالتسامح وتأييد العلماء، وزادت تلاميذه بعدد، ويظهر أنه كان يعتنق التقيّة، فكان مظهره ورعاً تقيّاً، وهو يبيث التعاليم العميقة لأخص تلاميذه ومريديه. ولم نعرف له آثاراً نستدل منها على آرائه ومذهبه، ولكن مستشرقاً إسبانياً عثر على بعض آرائه، وقال: إن كثيراً من تعاليمه تشبه تعاليم أمبيدوقليس وهو فيلسوف يوناني مشهور، عدّه المسلمون أول الحكماء السبعة اليونانيين، ونسبت إليه كرامات كما تنسب إلى الصوفية، ولم يقتصر أثره على مسلمي الأندلس، بل أثر أيضاً في يهودها ونصاراها.

وهنا نتساءل: هل بلغ تصوف الشرق ابن مسرة فتصوف، فيكون تصوف الغرب من تصوف الشرق، أو أن ميله الطبيعي ومزاجه، وتعاليم النصارى الإسبانيين والفلاسفة اليونانيين أنتجت ابن مسرة هذا، فيكون التصوف الأندلسي مستقلاً عن التصوف الشرقي؟ هذا سؤال صعب الجواب، ليس بين أيدينا ما يكشف غموضه، خصوصاً وقد كان في الأندلس قبل الإسلام زهاد انقطعوا للعبادة.

على كل حال كان ابن مسرة أول من نعرف في الأندلس من المتصوفة، وكان من تلاميذه فيما يروون الهاشمي، وهو أبو بكر محمد، أخذ عن ابن مسرة، وأخذ عنه محيي الدين بن عربي، وكان متقشفاً زاهداً، وإن لم نعرف له كتباً، وقد عاصره صوفي كبير آخر، وهو أبو عبد الله القرشي الهاشمي أيضاً، نسبوا إليه أقوالاً صوفية كثيرة مثل: «من لم يدخل في الأمور بلطف الأدب، لم يدرك مطلوبه منها. من لم يراع حقوق الإخوان بترك حقوقه حرم بركة الصحبة... إلخ».

وقد مات سنة ٥٥٩ هـ بعد أن رحل إلى بيت القدس ودفن به - وكان الناس يتبركون به وبضريحه - والهاشمي هذا هو أحد أساتذة محيي الدين بن عربي. وإذا

وصلنا إلى محيي الدين، وصلنا إلى إمام كبير من أئمة التصوف، نثر تصوفه في الشرق والغرب، وهو محيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن عربي الحاتمي الطائي، وهو عربي من نسل حاتم الطائي، ولد بمُرْسِيَة بلد أبي العباس المرسي سنة ٥٦٠ هـ، وقرأ القرآن وتعلم في إشبيلية، تعلم القرآن والحديث، وأقام بإشبيلية نحو ثلاثين عامًا، ثم رحل إلى المشرق، وأخذ الحديث عن ابن عساكر والجوزي، وساح في بغداد والموصل وبلاد الروم، واتسعت معارفه المتعددة. ومن الأسف أنه بعد أن رحل لم يعد إلى الأندلس ثانيًا، فقد توفي في دمشق، وقد أعطي بلاغة في القول، وعمقًا في التفكير، وسعة في الخيال، وكلما نزل بلدًا اتصل بمتصوفها، له النثر الكثير، والشعر الكثير، لا يعبأ بهال، ولا جاه، وكان كثير الشَّطْح، كثير التأويل، وربما كانت له قصص كثيرة تبين منحاه في القول، فقد قال:

يا مَنْ يراني ولا أراه كَمَذا أراه ولا يراني

فاعترض عليه، كيف لا يراه الله؟ فقال:

يا مَنْ يراني مجرمًا ولا أراه آخِرًا

كَمَذا أراه ممنوعًا ولا يراني لائقًا

وله كلام كثير من هذا القليل، ظاهره الإلحاد، وباطنه الإسلام مع التأويل، واشتهر شهرة واسعة، وكانت شهرته تسبقه إلى كل مكان يجلب فيه، وهو متوكل على الله، يتقل من بلد إلى بلد، فقيرًا زاهدًا، فيعطف عليه بعض الأغنياء، فيوزع ما يأخذه هنا وهناك، حتى لقد أعطي مرة بيتًا يسكنه، وجاءه سائل يسأله، ويقول: شيء الله، فأعطاه البيت.

وهو من أكبر الناشرين بين الصوفية لفكرة وحدة الوجود، أي أن الله والعالم

شيء واحد، يختلفان في الصورة فقط، ولا يختلفان في الحقيقة، وأن رؤية الأشياء مختلفة، كمنزل ورجل وشجرة ليس إلا أمرًا قضت به الضرورة، وليس إلا خداعًا من الحواس، ومطاوعة للعقل الإنساني القاصر، فهو يشبه ما يقول به الفلاسفة المحدثون من أن كل شيء أساسه الذرة، وإنما تختلف الأشياء باختلاف النواة الذرية وكمية شحناتها الكهربائية، وإلا فالحقيقة في الكل واحدة، وربما عبر عن هذا بقوله: «سبحان من خلق الأشياء وهو عينها» فهو يعين خالقًا ومخلوقًا في الظاهر، ولكنها في الحقيقة شيء واحد. وهو شيء كما يقول لا يدرك بالعقل، بل بالقلب، وليس هناك خالق ومخلوق إلا في الظاهر، وفي ذلك يقول:

يا خالق الأشياء في نفسه أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا يتتهي كونه فيك فأنت الضيق الواسع

ومن ناحية الظاهر والحديث المألوف، هناك خالق ومخلوق، وحق وخلق، وظاهر وباطن، وأول وآخر. وعندَه أن إقامة البرهان المنطقي لا يفيد في هذا الباب، إنما يدل عليه الشعور، والرياضة، والذوق، ويرى أن كل المخلوقات من جماد ونبات، وحيوان وإنسان، خاضعة لهذا المعنى، بمعنى أنها كلها تسير على مقتضى طبيعتها وحقيقتها، فالجماد يسكن أو يؤدي طبيعته الطبيعية، بحكم طبيعته، أو بعبارة أخرى: بحكم القانون الإلهي، وكذلك الإنسان والحيوان. ولذلك لا يعول كثيرًا على تفرقة بين يهودية ونصرانية، ووثنية وإسلام، ويقول في ذلك:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
ويبت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بندين الحب أتى توجّهت ركائبه، فالحب ديني وإيماني

ولأن كل إنسان ميسر لما خلق له، وليس في باطن الأمر إلا الله، وهذا لا يمنع من

أن الخلق يعشق الحق، فهي كلها اعتبارات، والشيء عادة يحن إلى جنسه، ولولا ذلك ما كانت هذه الجاذبية المبعوثه في عالم الأرض والسماء، وقد تأثر بتعاليم الأفلاطونية الحديثة في قوله «بلحظات التجلي» فقد عرف عن أفلوطين زعيم هذا المذهب أن الحق تجلى له مرة، فكاد يُضقق. والحقيقة عنده أن الأسماء المختلفة هي في الواقع أسماء لمسمى واحد وهي الحقيقة الوجودية وضعت اصطلاحًا للفهم والتفاهم: «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» والله خلق آدم على صورته. والذي يقرا كتابه «الفتوحات. المكية» يعجب من سعة خياله، وقدرته على التعبير والتأويل، وربها دل على مذهبه هذه القصيدة:

وما رأها بصري	وحقيقتي هممت بها
فتقبل ذلك الحبور	ولوراها لغدا
صيرت بحكم النظر	فعد ما أبصرتها
أهيم حتى السحر	أييت مسحورا بها
لو كان يُغني حذري	يا حذري من حذري
جمال ذلك الحق	والله ما هيمنني
تري بذات الخمر	في حسنها من ظليمة
تسي عقول البشر	إذا رنت أو عطفست
أعراف مسك عطر	كأنها أنفاسها
في النور أو كالقمر	كأنها شمس الضحى
نور صباح مسفر	إن أسفرت أبرزها
سواد ذلك الشجر	أو سُبدلت غيبها

يا قمرًا تحت دجى خُذِي فـؤادي وذري
عيني لكي أبصرك إذ كان حظي نظري

وقد عرف في تاريخ ابن عربي أنه وهو في مكة أحب فتاة تسمى «نظام» ألف فيها كتابه «ترجمان الأشواق» ظاهره عشق هذه الفتاة، وباطنه الله والفاء فيه. ومثل ذلك ما رواه عن ابن الفارض في مصر.

وقد أكثر محيي الدين بن عربي في التأليف، حتى ألف في الأدب والتاريخ، فله ديوان أشعار، وتفسير قرآن، وكتاب في أسرار العلوم.

وإذ كان الناس عادة من طبيعتين مختلفتين ومزاجين متباينين، حتى إن علماء النفس يقسمونهم إلى هذين القسمين، كان النزاع دائمًا بين الحسنيين والمعنويين، بين أهل الظاهر والباطن، بين من مزاجه ذوقي، ومن مزاجه عقلي، بين من يأخذ بالظواهر، ومن لا تقنعه الظواهر، بين أهل الكشف وأهل العقل، بين الفقهاء والمتصوفة... اختلف الناس في ابن عربي: هل هو مؤمن أشد الإيمان، أو ملحد أشد الإلحاد؟ فينعته بعضهم بالعارف بالله، وقطب الله، وولي الله، وينعته آخرون بأنه زنديق وملحد، وتؤلف فيه التأليف الكثيرة، ويثور الخلاف حوله، كما ثار في المشرق مثلًا بين الحلاج والفقهاء^(١)، فكان ممن ناصره الفيروزآبادي صاحب القاموس، وكمال الدين الزملكاني، والبلقيني، وشهاب الدين السهروردي، وفخر الدين الرازي، وابن السبكي، وغيرهم. وكان من الناقمين عليه ابن الخياط، والحافظ الذهبي، وابن تيمية، وابن إياس، والتفتازاني، وغيرهم.

وتشهد مصر في عهد الأيوبيين مشهدًا كبيرًا بين الفقهاء الذين ينكرون على

(١) انظر: ظهر الإسلام، ج ٢.

الصوفيين نزعتهم، وعلى رأسهم ابن تيمية الحنبلي، وبين المتصوفة؛ ويؤلفون في الخلاف بين الطائفتين الكتب، وأخيراً ألف كتاب «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين».

قال ابن النجار: «اجتمعت بابن عربي في دمشق في رحلتي إليها، وكتبت عنه شيئاً من شعره، ونعم الشيخ هو، ذكر لي أنه دخل بغداد سنة ٦٠١، فأقام بها اثني عشر يوماً، ثم دخلها ثانياً مع الحجاج سنة ٦٠٨ هـ وأنشدني بنفسه:

أيّا حائراً ما بين علم وشهوة ليتصل، ما بين ضدين من وصل
ومن لم يكن يستنشق الريح لم يكن يرى الفضل للمسك الفتيق على الزُّبل

وسألته عن مولده فقال: ليلة الاثنين ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ بمصرية». وقال ابن مُسدي: «إنه كان جميل الجملة والتفصيل، محصلاً لفنون العلم أخصّ تحصيل، وله في الأدب الشأو الذي لا يلحق. سمع بيلاده من ابن زرقون، والحافظ ابن الجدي، وأبي الوليد الحضرمي، وبسبته من أبي محمد بن عبد الله». وقال في حقه الذهبي: «إن له توسطاً في الكلام، وذكاء وقوة خاطر، وحافظة، وتدقيقاً في التصوف، وتأليف جمة في العرفان، لولا شطحه في كلامه وشعره، ولعل ذلك وقع منه حال سكره وغيبته، فيرجى له الخبر».

ومن نظم ابن عربي:

بين التذلل والتدلل نقطة فيها يتيه العالم النحرير
هي نقطة الأكوان إن جاوزتها كنت الحكيم وعلمك الإكسير

وقوله:

يسادة ببيضاء لاهوتية قد ركبت صدقاً من الناسوت

جَهْل البسيطة قَدَرها لشقاوتهم وتناقسوا في الدر والياقوت

ولعله يخاطب بذلك الإنسان.

وجاء في نفع الطيب أن المقرئ حكي في ترجمة عمر بن الفارض أن الشيخ محيي الدين بن عربي بعث إلى ابن الفارض يستأذنه في شرح التائية، فأجابته: «كتابك المسمى بالفتوحات المكية شرح لها». قالوا: «ولما صنف الفتوحات المكية كان يكتب كل يوم حيث كان، وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة، فما أَدَّخِر منها شيئاً»، وقال صفي الدين حسين في رسالته: «رأيت بدمشق الشيخ الإمام العارف محيي الدين بن عربي، وكان من أكبر علماء الطريق، جمع بين سائر العلوم الكسبية، وما قر له من العلوم الوهبية، ومنزلته شهيرة، وتصانيفه كثيرة، وقد غلب عليه التوحيد علماً وخلقاً وحالاً، لا يكثرث بالوجود، مقبلاً كان أو معرضاً. وله علماء وأتباع، أرباب مواجيد وتصانيف، وكان بينه وبين سيدي الأستاذ الخزاز إخاء ورفقة في السياحات». ومن نظمه:

قيل ظلام بضياء اخلط	لما تَبَدَّى عارضاه في نَمَط
وقيل نمل فوق عاج انبسط	وقيل سطر الحسن في خديه خط
وقال قوم: إنما اللام فقط	وقيل مسك فوق ورد قد نقط

وقوله:

قل فيه المشارك	لسك والله منظر
له ليوم مبارك	إن يوماً ما نراك في

وقوله:

سَاءَ لَتَنِي عَنْ لَفْظَةِ لَغْوِيَّةٍ فَأَجَبْتُ مَبْتَدَأًا بِغَيْرِ تَفْكَرٍ
خَاطِبَتِي مَتَبَسِّمًا فَرَأَيْتَهَا مِنْ نَظْمٍ تُغْرِكُ فِي صِحَاحِ الْجَوْهَرِيِّ

ويقول:

وَعَلِمْتُ أَنَّ مِنَ الْحَدِيدِ فَوَادِهِ لَمَّا انْتَفَى مِنْ مَقْلَتِهِ مَهْنَدًا
أَنْسَتُ مِنْ وَجْدِي بِجَانِبِ خَدِهِ نَارًا وَلَكِنْ مَا وَجَدْتُ بِهَا هَدَى

إلى كثير من شعره الذي ملئ به ديوانه وكتابه «الفتوحات المكية». وقد ألف السيوطي فيه كتاباً ساء «تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربي» وقد روي أن بعضهم كفر ابن عربي في مجلس شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام وقال فيه: إنه زنديق. ولم يرد عليه الشيخ، فعُدَّ سكوته إقرارًا، ولكن فسر عز الدين موقفه هذا فيما بعد بأن مجلسه كان مجلس فقهاء، والفقهاء أشد الناس على المتصوفة.

وروى الشعراني أن ابن عربي وصف السلطان الذي يفتح القسطنطينية. وقال: إنها تفتح سنة كذا، فكان الأمر كما قال، وبينه وبين السلطان محمد الفاتح نحو مائتي سنة، ولذلك بنى عليه قبة عظيمة، وتكية بالشام. وكانت وفاة ابن عربي سنة ٦٣٨ هـ بالصالحية بدمشق. وقال بعضهم: «إن من يتسامح في كلام ابن عربي ويتأول، يسهل عليه المراء، وإن كان ممن يلتزم الظاهر، صعب عليه».

وقد نقده أهل الديار المصرية، وسعوا في إراقة دمه، فخلصه الله على يد الشيخ البُجَّائي، فإنه تأول كلامه. ولما سأل البجائي ابن عربي عن بعض ما ورد على لسانه قال له: «يا سيدي تلك شطحيات في محل سُكْرٍ، ولا عتب على سكران». ومما يدل على مذهبه قوله:

نُبِّهَ عَلَى السَّرِّ وَلَا تُفْشِئِهِ فَالْبُوحُ بِالسَّرِّ لَهُ مَقْتٌ

على الذي يديه فاصبر له واكتمه حتى يصل الوقت

وكان يقول ابن عربي: إن كل العالم مظاهر للألوهية، وكان يعتقد أنه رأى محمدًا صلى الله عليه وسلم، وأنه يعرف اسم الله الأعظم، ويعرف الكيمياء بالتنزيل لا بالتعليل. ومما طبع من كتبه «الفتوحات المكية»، وديوان يسمى «ترجمان الأشواق»، وكتاب «محاضرات الأبرار»، وكتاب «فصوص الحكم»، و«مجموع الرسائل الإلهية».

وأياً ما كان، فقد خلف محيي الدين بن عربي تراثاً يلعب بالأفكار والعقول إلى اليوم في الشرق وفي الغرب.

ومن أشهر متصوفة الأندلس ابن سبعين وكان أديباً صوفياً متفلسفاً مترهداً متقشفاً، وهو من خريجي فرسية كمحيي الدين بن عربي وأبي العباس المرسي، وقد كان تلاميذه يعتقدون أنه ليس له نظير في العلم البلدي، وكان مشهوراً بحبه الإيثار وعطفه على الإنسانية كلها ومحبه لأعدائه، وبيته كان بيت عز ومجد في بلاد المغرب وهو بيت علوي، وقد زهد في رياسة أهل بيته وتركها لإخوته، وقد قالوا: إنه ألف كتاباً اسمه «بدء العارف» وسنه خمس عشرة سنة. ولثقافته الأدبية كان يؤدي ما عنده من المعاني أداء حسناً، ويروون أن ابن هود الأمير المشهور تعاقد مع طاغية النصراني، فلم يف الطاغية بعهد فاضطر ابن هود إلى مخاطبة البابا وأرسل ابن سبعين سفيراً عنه إلى روما.

وذكر ابن خلدون في تاريخه أن السلطان المستنصر ملك إفريقية بايعه أهل مكة، وخطبوا له بعرفة، وأرسلوا له رسالة بتنصيبه، قال: وهي من إنشاء ابن سبعين، وقد ذكرها ابن خلدون بجملتها وهي طويلة بليغة، وهو يشير في هذه الرسالة إلى أن المستنصر هو المهدي المنتظر. وكان لابن سبعين أتباع كثيرون يتحمسون له، وله

تأليفات كثيرة ورسائل كثيرة، قالوا: ونشأ ترفاً موقراً، وكان وسيماً جميلاً، ملوكي البزة، عزيز النفس، قليل التصنع، آية من الآيات في الإيثار والجود بما في يده.

وقد اشتهر ابن سبعين حتى وصلت أخباره كما يقولون البابا في روما، وقد ذكروا أن الإمبراطور فردريك الثاني النرمانى ملك صقلية عرضت له بعض مسائل فلسفية عرضها على كثير من علماء المسيحيين والمسلمين فلم يتصدَّ للرد عليها ردًّا شافيًا أعجب فردريك مثل رد ابن سبعين. وكانت الأسئلة هي:

١- ما هو المقصود من العلم بالله؟ وما مقدماته؟

٢- ما معنى المقولات؟ وكيف تستخدم في العلوم؟ وما عددها؟

٣- ما الدليل على خلود النفس؟

وإجابة ابن سبعين في رسالة لا تزال محفوظة إلى اليوم، وهي تدل على اطلاع ابن سبعين على ما ترجم من الفلسفة اليونانية. وله شطحات ورموز على نحو طريقة ابن عربي في نظرية وحدة الوجود. ونقل عبد الرؤوف المناوي: أن ابن سبعين كان له سلوك عجيب على طريق أهل الوحدة، وله في علم الحروف والأسماء اليد الطولى. ومن أقواله التي تروى عنه في تلاميذه: «عليكم بالاستقامة على الطريق، وقدموا فرض الشريعة على الحقيقة ولا تفرقوا بينهما فإنهما من الأسماء المترادفة، واكفروا بالحقيقة التي في زمانكم هذا وقولوا عليها وعلى أهلها اللعنة».

وقد ذكر المرحوم السيد محمد رشيد رضا عن ابن سبعين أنه قال: لقد حجر ابن آمنة واسعًا بقوله: لا نبي بعدي، وهو كالذي يقوله القاديانية اليوم، وهو يشير من طرف خفي بهذا القول - إن صح - إلى أنه بلغ حد النبوة، وهي نزعة موجودة عند

كثير من الصوفية، بل منهم من اعتقد أن الولاية أرقى من النبوة، وقد انقسم الناس فيه أقسامًا شأنهم في ذلك شأنهم مع كبار المتصوفة كابن عربي، وابن الفارض. فمن تمسك بظاهر الشرع أنكروا كل هذه الشطحات وأنكروا نزعة الصوفية؛ كما فعل ابن تيمية مع محيي الدين بن عربي؛ ومنهم من يضع الصوفية فوق الفقهاء والعلماء والفلاسفة، فيؤمن بهم ويلتمس بركتهم، كالسيوطي والمقري وأمثالهما، ومنهم من يذهب مذهب التحفظ كالذهبي في تاريخه، فمثلاً يقول في ابن سبعين: «كان ابن سبعين من زهاد الفلاسفة، ومن القائلين بوحدة الوجود، له تصانيف وأتباع، يقدمهم يوم القيامة». وفي رأينا أن كتبه ورسائله لا تزال تحتاج إلى دراسة عميقة لمعرفة قيمته ومنحاه»^(١).

وخلفه قوم كثيرون من الصوفيين في الأندلس، حتى لا يكاد يخلو عصر من عصور الأندلس من الصوفية؛ من أشهرهم أبو العباس المرسي، وهو صاحب المقام المشهور في الإسكندرية، والمرسي نسبة إلى مرسية، وهي أيضًا بلد محيي الدين بن عربي، قالوا: إنه كان يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله؛ حتى أنه ربما دخل عليه مطيع فلا يحفل به، وربما دخل عليه عاص فأكرمه، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله ناظر لفعله، وذلك العاصي دخل متواضعًا لمعصيته، ذليلاً لمخالفته، وكان شديد الكراهية للوسواس في الصلاة. قالوا: إن له كلامًا بديعًا في تفسير القرآن كقوله في «الحمد لله رب العالمين» [الفاتحة: ٢]: «علم الله عجز خلقه عن حمده، فحمد نفسه بنفسه في أزله، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمده بحمده... إلخ»، ويقول: «التقوى في كتاب الله على أقسام: تقوى النار، قال تعالى: «واتقوا النار»، وتقوى اليوم الآخر، قال: «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله»، وتقوى الربوبية، قال:

(١) لابن سبعين جملة رسائل مكتوبة بالخط المغربي الدقيق في مكتبة تيمور باشا في القاهرة في جزأين كبيرين.

«اتقوا ربكم»، وتقوى الألوهية، وتقوى الله، وتقوى الإنبيّة قال: «واتقون يا أولي الألباب»، وقال عند سماعه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر». «أي أنا لا أفتخر بالسيادة، وإنما الفخر لي بالعبودية لله». ولما سمع قول سمون المحب:

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاخترني

قال: كان الأولى أن يقول: «كيفما شئت فاعف عني» إذ طلب العفو أولى من طلب الاختبار. وقال: «الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعراف جاء من الآخرة إلى الدنيا»، وهكذا له كثير من الأقوال. وألف فيه تلميذه ابن عطاء الله كتاباً يذكر فيه فضائله وكراماته.

ومن نعرفهم من المتأخرين أحمد بن فاس، كان شيخاً من المتصوفة، ادّعى أنه المهدي المنتظر، واستولى على بعض البلاد، وكان في أيام الموحدين، وقتله أحد أتباعه، وألف كتاباً سماه «خلع النعلين في التصوف».

والذي نلاحظه أن الحركات علمية كانت أو أدبية، تتلون حسب ميول الأمراء، فإذا كان البيت الحاكم متصوفاً، ساد التصوف، أو متفلسفاً انتشر التفلسف. وقد شاهدنا أن أسرة جاءت تميل إلى الغزالي، فحيّت كتبه، ومجد شخصه، وجاءت أسرة أخرى تخالفه، فأحرقت كتبه، وأعلنت كراهيته.

على كل حال لم ينقطع التصوف في أي زمان كان، ولكن لم يبلغ شأنه كما بلغ على يد محيي الدين بن عربي، وانتقل أكثره إلى تحريف وتدجيل كما كان الحال في الشرق.

ويطول القول لو عددنا أسماء المتصوفة كلها في الأندلس وترجمنا لهم، وأبنا عيوبهم ومزاياهم. فلنكتف بهذا القدر.